الفصل الخامس عشر

أرازموس الرائد

١٤٦٩ – ١٥١٧

– تربية عالم بالإنسانيات

ولد أعظم عالم بالإنسانيات عام ١٤٦٦ أو عام ١٤٦٩ فى روتردام أو بالقرب منها وهو الابن الثانى غير الشرعى لجيرارد وهو كاتب فى أدنى الدرجات . وأمه مرجريت ابنة طبيب وأرملة . ويبدو أن الأب رسم قسيسا عقب هذه الكارثة ولا ندرى كيف سمى الصبى بالاسم السخيف ديزيديريوس ارازموس ومعناه الحبيب المرغوب فيه . ولقد علمه مدرسوه الأوائل القراءة والكتابة باللغة الهولندية ولكنه عند ما ذهب ليدرس مع إخوة الحياة المشتركة فى ديفنترغرم لأنه كان يتحدث بلغته الوطنية فقد كانت اللغة اللاتينية هناك « الزاد الرئيسى للتعليم » وكانت التقوى تراعى بحزم كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب — ومع ذلك فإن الإخوة كانوا يشجعون على دراسة كلاسيات وثنية مختارة وبدأ أرازموس فى ديفنتر يمسك بزمام اللغة اللاتينية والأدب بصورة مذهلة .

ومات والده حوالى عام ١٤٨٤ وخلف الوالد ضيعة متواضعة لولديه ولكن الأوصياء عليهما بددوا معظمها ووجهوا الشابين اليافعين للانخراط فى سلك الرهبنة لأنها لا تحتاج إلى امتلاك شىء على الإطلاق فاحتجا إذ كانا يرغبان فى الالتحاق بالجامعة ، وأخيراً أمكن اغراؤهما — بوعد أرازموس بالحصول على كثير من الكتب كما قيل لنا . أما الابن الأكبر فقد رضى بمصيره وارتفع شأنه فأصبح « سكيراً مدمنا وأن لم يكن فاجراً سافلا » . وأخذ ديزيد ريوس على نفسه العهود كأى راهب أوغسطينى فى ديراماوس فى

ستين . وحاول أن يحب حياة الدير جهد استطاعته بل إنه كتب مقالا بعنوان : De contemptu mundi « تأملات فى الوجود » ، ليقنع نفسه بأن الدير هو المكان المناسب لصبى له روح متعطشة ومعدة منهوكة ولكن معدته أرهقها الصيام وأصابها الغثيان حينما كانت تُشَم رائحة السمك . ومع ذلك فإن العهد الذى قطعه على نفسه بالخضوع أثبت أنه أشد قساوة من نذره العفة ، ومن يدرى ؟ لعل مكتبة الدير كانت تعوزها الكلاسيات . وأشفق عليه رئيس الدير وأعاره ليعمل كاتب سر لهنرى البرجينى أسقف كمبراى . وقبل أرازموس عندئذ (١٤٩٢) أن يرسم قسا ولكنه أينما اتجـه نازعته نفسه إلى أن يضع قدمه على مكان آخر . كان يحسد الشبان الذين التحقوا بالجامعة بعد إنهاء تعليمهم المحلى . وكانت باريس تفوح بشذى العلم والهوى الذى قد يسمم الحواس المرهفة عبر مسافات بعيدة . وأغرى ديزيديريوس الأسقف على إرساله إلى جامعة باريس بعد أن خدمه بكفاءة بضع سنوات وانطلق وليس معه إلا ما يقوم بأوده . وكان ينصت فى صبر نافذ إلى المحاضرات ولكنه كان يلتهم الكتب . وكان يشهد المسرحيات والحفلات وينقب بين الفينة والفينة عن المفاتن الأنثوية ، ويقول فى إحدى محاوراته أن ألطف طريقة لتعلم الفرنسية هى أن تتلقاها عن بنات الليل ومع ذلك فقد أغرم بالأدب . . أغرم بتلك الكلمات الموسيقية السحرية التى تفتح بابا يلج منـــه المرء إلى عالم الخيال والبهجة . وعلم نفسه اليونانية وأصبحت أثينا أفلاطون ويوروبيدس وزينون وأبيقوروس مألوفة لديه مثل روما سيشرون وهوراس وسينيكا فكلا المدينتين كانتا حقيقتين بالنسبة له مثلهما فى ذلك مثل شاطئ السين الأيسر . وكان سينيكا فى نظره مسيحيا صالحا مثل سانت بول ونمطيا أحسن منه (وهى وجهة نظر لعله لم يكن فيها سليم الذوق تماما) ورحل باختياره فى غمرات الماضى واكتشف لورنزوفالا ، فولتير نابولى واستطاب طعم اللاتينية الأنيقة والجرأة المتهوسة اللتين تسم تكفله بهما بكشف زيف قصة « هبة قسطنطين » وقد لاحظ

أخطاء جد خطيرة فى النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس وتساءل أليست الأبيقورية أحكم وسيلة للعيش . وقد أفزع أرازموس علماء اللاهوت فيما بعد وخفف عن بعض الكرادلة بسعيه فى التوفيق بين أبيقور والمسيح . وكانت أصداء أصوات دونس سكوتس وأوكهام لا تزال تتردد فى باريس والمذهب الأسمى يعلو نجمه ويهدد العقائد الأساسية مثل التجسيد والثالوث . وقوضت هذه السقطات الفكرية أرثوذكسية القس الشاب ولم يترك له إلا الإعجاب العميق بأخلاقيات المسيح .

وأكب على قراءة الكتب وغالى فى ذلك إلى درجة غير محموده . وقام بإعطاء دروس خصوصية لبعض الفتيان من الطلبة لزيادة موارده وذهب ليعيش مع أحدهم ومع ذلك لم يكن لديه ما يوفر له حياة هانئة . وألح على أسقف كامبراى قائلا : « إن كلا من جلدى وكيسى فى حاجة إلى أن يملأ : الأول باللحم والثانى بالعملات . اعمل وفق ما يمليه عليك كرمك » . واستجاب له الأسقف بلطفه المعهود ودعاه طالب يدعى لورد أف فير Vere إلى قصره فى تورنيهم فى الفلاندرز وسرارازموس عند ما وجد فى ليدى آن أف فير نصيرة للعبقرية وتعرفت فيه على هـــذه المزية وعاونته بمنحة سرعان ما استنفدها : وأخذه طالب غنى آخر هو ماونتجوى إلى إنجلترا (١٤٩٩) وهناك فى البيوت الارستقراطية الواسعة فى الريف وجد العالم المكدود دنيا رحبة تحفل باللذة الرفيعة وانقلب ماضيه فى الدير إلى ذكرى يقشعر لها بدنه . وأبلغ صديقا له فى باريس عن تقدمه فى خطاب من خطاباته التى لا تحصى ولا تقلد وهى الأثر الباقى له الآن : « إننا نتقدم . ولو كنت عاقلا لسارعت بالمجىء إلى هنا . . . آه لو عرفت ما ننعم به فى بريطانيا . . . ولأذكر لك إحدى المباهج الكثيرة : هنا حوريات لهن تقاطيع ملائكية فى غاية الرقة والرأفة . . . وعلاوة على ذلك فثمة أسلوب للحياة لا يمكن الثناء عليه تماماً فحيثما تذهب يستقبلونك بالقبلات على يديك وعند ما ترحل

يشيعونك بالقبلات وإذا عدت فإن تحياتك ترد إليك . . . وأينما يتم اجتماع فهناك تحيات وافرة وحيثما تلتفت تجدها تلاحقك . أواه يافاوستوس ! لو ذقت مرة عذوبة هذه الشفاه وشذاها لتمنيت أن تكونَ سائحا لا لمدة عشر سنوات مثل سولون بل طوال حياتك فى إنجلترا » .

والتقى أرازموس فى بيت ماونتجوى فى جرينوتش بتوماس مور ، وكان حينئذاك لا تتجاوز سنه الثانية بعد العشرين ولكنه مع ذلك كان له من المكانة ما استطاع به أن يقدم العالم إلى من قدر له بعد ذلك أن يكون هنرى الثامن . وسره فى أكسفورد على الأغلب عدم الكلفة فى صحبة الطلبة وفى الكلية كما سرته أحضان ربات البيوت الريفية . وهناك تعلم كيف يحب جون كوليت الذى أذهل عصره باعتناقه المسيحية على الرغم من أنه كان محققا وعلامة فى علم الأديان القديمة وتأثر أرازموس بتقدم علم الإنسانيات فى إنجلترا : « عندما أسمع عزيزى كوليت يخيل إلى أنى أستمع لأفلاطون نفسه ؛ من لا يعجب فى جروسين عندما يرى عالما كاملا للمعرفة مثل هذا ؟ ماذا يمكن أن يكون أذكى وأعمق وأدق من حكم لياكر ؟ وماذا أبدعت الطبيعة أكثر رقة وخلاوة وسعادة من عبقرية توماس مور ؟ » .

لقد أثر هؤلاء الرجال تأثيراً عميقاً فى إصلاح حال أرازموس فتحول من شاب مغرور طائش ، أسكرته خمر الكلاسيات وفتنة النساء ، إلى عالم جاد مدقق تواق لا إلى المال والشهرة فحسب ولكن إلى تحقيق عمل مفيد دائم . وعندما غادر إنجلترا (يناير عام ١٥٠٠) كان قد استقر عزمه على أن يدرس وينشر النص اليونانى للعهد الجديد لأن الجوهر الخالص لتلك المسيحية الحقة فى نظر المصلحين وعلماء الإنسانيات على السواء ، قد أخفتها وموهت عليه العقائد وتكاثرها على مر القرون .

وأظلمت ذكرياته الجميلة عن هذه الزيارة الأولى لإنجلترا بما حدث فى الساعة الأخيرة ؛ فبينما كان يجتاز الجمارك فى دوفر صادرت السلطات

المبلغ الذى منحه له أصدقاؤه وكان يقدر بنحو عشرين جنيها (٢٫٠٠٠ دولار) لأن القانون الإنجليزى يحرم تصدير الذهب أو الفضة . وزاد الطين بلة أن أحدهم ، وإن لم يكن محاميا كبيراً ، أشار عليه خطأ بأن التحريم لا يسرى إلا بالنسبة للعملة الإنجليزية ، فغيرها أرازموس ولم تجد إنجليزيته المتعثرة ولا لاتينيته المختلة فى الانحراف بصرامة القانون التى لا ترحم واستقل أرازموس سفينة إلى فرنسا وهو خالى الوفاض بالفعل . قال : « لقد عانيت من الغرق قبل أن أذهب إلى البحر » .

٢ ــ المشائى

وبعد إقامة بضع شهور فى باريس نشر أول عمل هام له وهو مجموعة أقوال مأثورة وتضم ٨١٨ مثلا أو شاهداً ، معظمها لمؤلفين من القدامى . وكان إحياء المعرفة . أى الأدب القديم ــ قد وضع تقليداً دارجاً بأن يزين المرء آراءه باقتباس من مؤلف يونانى أو لاتنى ، ونرى هذا التقليد بصورة متطرفة فى مقالات مونتينى وفى كتاب « تشريح السوداء » لبرتون . وتريث هذا التقليد فى القرن الثامن عشر فى عهد الخطابة الجدلية بانجلترا . وأرفق أرازموس كل قول مأثور بتعليق ، يشير عادة إلى الاهتمام السائد ويمليه ذكاء يمتزج بالسخرية والهجاء . وقد علق قائلا : « ورد فى الكتاب المقدس أن القسس يلتهمون خطايا الناس فيجدون أن الخطايا عسيرة الهضم ولا بد من أن يرتشفوا أحسن الأنبذة للخلاص منها » . وكان الكتاب نعمة للكتاب والمتحدثين وبيع منه الكثير لمدة عام استطاع فيه أرازموس أن يعول نفسه دون الاعتماد على أحد . وعلاوة على هذا فإن كبير الأساقفة وارهام استحسن الكتاب على الرغم من لذعاته وأرسل للمؤلف مبلغاً من المال على سبيل المنحة وعرض عليه الإقامة فى انجلترا . ومهما يكن من أمر فإن أرازموس لم يكن على استعداد لترك القارة والإقامة فى جزيرة وفى الأعوام الثمانية التالية

نشر بضع نسخ منقحة من الأقوال المأثورة وزاده إلى ٣٢٦٠ نصا مدونا وظهرت له فى حياته ستون طبعة وصدرت له ترجمات عن اللاتينية الأصلية إلى الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والهولندية وكلها من أكثر الكتب رواجا فى عصرها .

وعلى الرغم من هذا كله كانت الظروف غير مواتية والطعام لا يكفى واشتد بأرازموس الضيق فكتب (١٢ ديسمبر عام ١٥٠٠) إلى صديقه چيمس بات وكان مربيا لابن ليدى آن أف فير يسأله : « أرجو أن تشير لها إلى ما سوف أحققه لها بتعليمى من جاه يزيد عما يحققه لها القسس الآخرون الذين تحتفظ بهم. إنهم يتلون عظات عادية أما أنا فأكتب ما يعيش إلى الأبد . وهم بلغوهم السخيف لا يسمعون إلا فى كنيسة أو اثنتين أما أعمالى فسوف يقرؤها كل من يعرف اللاتينية واليونانية فى كل بلد من بلاد العالم . وما أكثر رجال الدين غير المتعلمين فى كل مكان أما أمثالى فقلما يجود بهم الزمان . أرجو أن تكرر كل هذا لها ما لم تكن كثير الوساوس فلا تستطيع أن تقول بعض الكذبات من أجل صديق » .

وعندما فشلت هذه المفاوضة كتب مرة أخرى يقترح أن يقول بات للسيدة أن أرازموس يوشك أن يكف بصره ثم أردف قائلا : « أرسل لى أربع قطع ذهبية أو خمسا من مالك الخاص على أن تستردها من مال الليدى » . ولما لم يقع بات فى هذا الشرك كتب أرازموس مباشرة إلى السيدة وشبهها بأنبل البطلات فى التاريخ وأجمل محظيات سليمان وتنبأ لها بشهرة خالدة . واستسلمت لهذا الزهو الأخير وتلقى أرازموس هدية مادية واستعاد بصره . وكان يغتفر للكاتب طبقا لتقاليد هذا العهد أن يطلب معونة من يرعونه لأن الناشرين لم يكونوا على استعداد وقتذاك لمؤازرة المؤلفين ولو كان لهم قراء عديدون . وكان فى استطاعة أرازموس أن يحصل على مرتبات وأسقفيات بل ومنصب كاردينال ولكنه رفض هذه العروض المرة

تلو المرة لكنى يظل « رمحا ظليقا » متحرر الفكر وفضل أن يستجدى ويكون حراً ولا يفسد وهو يرسف فى الأغلال ، وانتقل إلى لوفان عام ١٥٠٢ فراراً من الطاعون فعرض عليه أوربان الاوترختى مدير الجامعة منصب أستاذ ورفض أرازموس وعند ما عاد إلى باريس استقر فيها ليكسب عيشه بقلمه — وهى واحدة من أحدث المحاولات الأولى فى هذا المشروع المتهوس . وترجم خطب سيشرون وهيكوبا ليوروبيدس ومحاورات لوشيان ، وليس من شك فى أن هذا الفيلسوف الشاك الظريف أسهم فى تشكيل عقلية أرازموس وأسلوبه . وقد كتب أرازموس عام ١٥٠٤ إلى صديق له : « عجبا ! بأى ظرف وبأى سرعة يعالج لوشيان ضرباته فيحول كل شىء إلى سخرية ولا يترك شيئاً يمر دون أن يسخر منه . وأقسى ضرباته موجهة إلى الفلاسفة . . . نظر إلى دعاواهم غير الطبيعية وإلى الرواقيين بسبب عجرفتهم التى لا تحتمل . . . وهو لايجد حرجا فى السخرية من الآلهة ومن هنا خلع عليه لقب ملحد — وهو شرف رفيع أضفاه عليه الزنادقة أصحاب الوساوس » . .

وفى زيارة ثانية لإنجلترا (١٥٠٥ — ١٥٠٦) انضم إلى كوليت وقاما بالحج إلى ضريح سانت توماس فى بيكيت بكانتربرى وسجل وصفا لهذه الرحلة بأسماء مستعارة وذلك فى إحدى محاوراته ، ولقد روى لنا كيف أساء جراتيان (كوليت) إلى دليلهم الراهب عند ما أبدى رأيه وقال : « إن قدراً ضئيلا من الثروة التى تستخدم فى تزيين الكاتدرائية يمكن توجيهها لتخفيف وطأة الفقر فى كانتربرى » ، وروى أيضاً كيف عرض عليهم الراهب لبناً قال إنه من ثدى العذراء و« قدرا مذهلا من العظام » لا بد من تقبيله باحترام وكيف عصى جراتيان فرفض أن يقبل حذاء قيل إن بيكيت لبسه وكيف عرض الدليل على جراتيان قطعة قماش يزعمون أن القديس استعملها فى تجفيف

جبينه وفى مخط أنفه كما لو كانت منة عظمى وتذكارا مقدساً ، وظل يسوق الحجج والبراهين على هذا فقطب جراتيان جبينه وتمرد . وعاد العالمان بالإنسانيات إلى لندن وهما يأسفان على الإنسانية .

وهناك أسعد الحظ أرازموس إذ كان طبيب هنرى السابع يعتزم إرسال ولدين له إلى إيطاليا فعهد إلى أرازموس بمرافقتهما « كدليل عام ومشرف » وأقام مع الوالدين عاما فى بولونيا وأخذ يلتهم المكتبات ويضيف كل يوم جديدا إلى اشتهاره بحبه للعلم والمعرفة واللسان اللاتينى . وكان إلى ذلك الوقت : يرتدى مسوح راهب أوغسطينى — وهو عبارة عن ثوب أسود ومعطف وقلنسوة وقبعة بيضاء يحملها عادة على ذراعه ولكنه فى عام (١٥٠٦) نبذ هذا الزى واستبدل به ثوب كاهن علمانى أقل وضوحا واضعى أنه حصل على إذن بهذا الاستبدال من البابا يوليوس الثانى ثم أقام فى بولونيا كأنه فاتح عسكرى غير أنه عاد إلى إنجلترا عام ١٥٠٦ لأسباب لا نعرفها وألقى محاضرات فى اليونانية بجامعة كمبردج بيد أننا نجده يعود إلى إيطاليا عام ١٥٠٨ ويعد طبعة موسعة لمجموعته فى الأمثال السائرة لمطبعة الدوس مانوتيوس فى البندقية . وعندما مر بروما (١٥٠٩) فتنته عيشة الكرادلة الرغدة وأخلاقهم السامية وثقافتهم الرفيعة وسرمن — كما أن لوثركان قد فجعته بروما فى السنة الماضية — الغزوات التى قامت بها الموضوعات والوسائل الوثنية فى عاصمة العالم المسيحى . ومما استاء له أرازموس كثيرا سياسة يوليوس الثانى العسكرية وحدته ومطارداته وهو يتفق فى هذا مع لوثر ولكنه يتفق أيضاً مع الكرادلة الذين كانوا يرحبون بحرارة بكثرة تغيب البابا العنيد وزحبوا بحضور ارازموس لاجتماعاتهم وعرضوا عليه منصبا دينيا إذا أقام فى روما ؛

وما كادت تطيب له الإقامة فى المدينة الخالدة حتى أرسل له ماونتجوى

رسالة يبلغه فيها أن هنرى السابع مات وأن صديق علماء الإنسانيات أصبح هنرى الثامن وأن الأبواب والمناصب الرفيعة جميعا ترحب الآن باراز موس إذا ما عاد إلى إنجلترا . ووصلت مع خطاب ماونتجوى رساله من هنرى الثامن نفسه : « بدأ تعارفنا عند ما كنت صبيا . وقد ازداد الاحترام الذى تعلمت أن أكنه لك بفضل تنويهك المشرف بى فى كتاباتك وبالطريقة التى استخدمت بها مواهبك فى ابراز الحقيقة المسيحية وبما أنك قد حملت هذا العبء وحدك فأسعدنى بمعاونتك وحمايتك إلى أقصى حد يمتد له سلطانى . . . إن سلامتك ثمينة بالنسبة لنا جميعاً . . . ومن ثم فإنى أرى أن تتخلى عن كل فكرة بالإقامة فى مكان آخر وتعال إلى إنجلترا وثق أنك ستلقى ترحيباً حاراً . وعليك أن تذكر شروطك وثق أنها ستكون سخية ومشرفة كما تشاء . واذكر انك قلت يوماً أنك ستتخذ من هذا البلد موطنا لك فى شيخوختك بعد أن تكون قد تعبت من التجوال . وإنى لأتوسل إليك بكل ما هو مقدس وصالح أن تفى بوعدك هذا ولسنا الآن فى مركز يتيح لنا أن نعرف قيمة علمك أو نصيحتك وسوف نعتبر وجودك بيننا أثمن ما نمتلك . . . وإذا كنت فى حاجة إلى الاستمتاع بوقت فراغك فلن نسألك شيئاً سوى أن تجعل من مملكتينا موطنا لك . . . تعال إلى إذن يا عزيزى أرازموس وليكن حضورك بمثابة إجابة لدعوتى » فكيف يمكن أن ترفض دعوة رقيقة كريمة كهذه ؟ إن لسان أرازموس ينعقد حتى لو نصبته روما كردينالا ، ففى إنجلترا حيث يحيط به أصدقاء من ذوى النفوذ ويحميه ملك قوى يستطيع أن يكتب بحرية ويعيش فى أمان . وودع علماء الإنسانيات فى روما فى شىء من التبرم ، إلى القصور الرحبة والمكتبات . . . إلى الكرادلة الذين ناصروه . . . واتخذ طريقه مرة أخرى فوق جبال الألب إلى باريس فانجلترا .

٣ ـ الهجاء

ومكث هناك خمس سنوات ولم يتلق طوال هذا الوقت من الملك سوى التحية بين الفينة والفينة . ترى هل كان هنرى مشغولا جداً بالعلاقات الخارجية أم بالأهل والأقارب ؟ وظل أرازموس ينتظر وهو يثمين غيظا . وخف مونتجوى لنجدته بمنحة . ونفحه وارهام بدخل أبرشية فى كنت ، وعينه جون فيشر أسقف روشستر ومدير جامعة كامبردج أستاذاً لليونانية بمرتب سنوى قدره ١٣ جنيها (١٫٣٠٠ دولار) ولرفع هذا الدخل بالقدر الذى يسمح بالاحتفاظ بخادم وجواد أهدى أرازموس مطبوعاته إلى أصدقائه الذين استجابوا له فى تردد .

وفى السنة الأولى من هذه فى إنجلترا كتب أرازموس فى بيت توماس مور وفى خلال سبعة أيام أشهر كتاب له « الثناء على الطيش » وكان عنوانه اليونانى Encomium moriae تورية لاسم مور وإن كانت كلمة Moras باليونانية تعنى طائش وكلمة Moria تعنى الطيش واحتفظ أرازموس بعمله مخطوطا لمدة عامين ثم انطلق بعدها بفترة وجيزة إلى باريس لنشره (١٥١١) وطبعت منه فى حياته أربعون طبعة وترجم إلى اثنتى عشرة لغة والتهمه رابيليه وفى عهد متأخر عام ١٦٣٢ وجده ملتون فى يد « كل إنسان » فى كامبردج .

ولم يستخدم أرازموس كلمة Moria بمعنى طيش وسخف وجهل وغباء فحسب بل بمعنى سذاجة فكرية وغريزة وعاطفة وبساطة أمية مقابل حكمة وعقل وحساب وفكر . ويقول لنا إن الجنس البشرى بأسره يدين بوجوده للطيش إذ أى شىء أسخف من مطاردة الذكر المتعددة الأشكال للأنثى وإكباره المحرم للحمها وعاطفته المشبوبة للتساند ؟ وأى إنسان يدفع مقابل هذا التناقض

فى الانتفاخ ارتباطا مدى الحياة بالزواج من واحدة ؟ وأى امرأة فى كامل قواها العقلية تدفع فى مقابل هذا آلام الأمومة وشدائدها ؟ أليس من السخرية أن تكون الإنسانية ثمرة عارضة لهذا الندم المتبادل ؟ لو أن الرجال والنساء توقفوا وتأملوا ملياً لضاع كل شىء .

وهذا يوضح ضرورة الطيش وحماقة الحكمة إذ هل يمكن أن توجد الشجاعة إذا حكم العقل ؟ وهل يمكن أن تتحقق السعادة ؟ إن سفر الجامعة كان على حق فى الاعتقاد بأن « من زادت معرفته زادت أحزانه وفى الحكمة الكثيرة أسى كثير ؟ » من يكون سعيداً إذا تكشفت له حجب المستقبل ؟ إنه لمن حسن الحظ أن العلم والفلسفة عاجزان وأن الناس يجهلونهما وأنهما لا يحدثان ضرراً عظيما لجهل الجنس الذى لا غنى عنه . وإن الفلكيين « يقدمون لك أبعاد الشمس والقمر والنجوم مقدرة بسمك الشعرة وذلك بسهولة كما يفعلون بأبعاد إبريق أو جرة ولكن الطبيعة تهزأ بظنونهم الواهية . والفلاسفة يزيدون المرتبك ارتباكا والمظلم ظلاما وهم يبددون الوقت والعقل على أمور تافهة منطقية أو ميتافيزيقية تذهب أدراج الرياح ، وخير لنا أن نرسلهم بدلا من جنودنا لمحاربة الأتراك الذين سوف يتراجعون فى ذعر أمام هذا اللغو المربك ! والأطباء ليسوا أفضل منهم فكل فنهم كما يمارس الآن هو فن مركب يمزج الخداع بالتضليل » . أما علماء اللاهوت فإنهم : « يقولون لك إلى الهنة عن كل الإجراءات المتوالية للقدرة على كل شىء فى خلق العالم ويفسرون لك الطريقة الدقيقة للخطيئة الأولى مستمدة من أول آبائنا ويرضونك ويقولون لك كيف أن . . المسيح حملت به العذراء ويوضحون لك فى الرقاقة المقدسة كيف يمكن أن توجد الحوادث دون محمول عليه . . . وكيف يمكن أن يوجد جسم واحد فى أماكن متعددة فى وقت واحد وكيف أن جسد المسيح فى السماء يختلف عن جسده فوق الصليب أو فى القربان المقدس .

وفكر أيضاً فى اللغو الذى يتمثل فى معجزات وأعاجيب — رؤى ومزارات شافية واستدعاء للشيطان و « أمثال الشبح المخيف الوهمى » .

إن هذه السخافات . . . تجارة رابحة وتأتى بدخل يضمن عيشاً رغداً لهؤلاء القسس والرهبان كما أنهم يكسبون من وراء هذا الخداع . . . ماذا عساى أن أقول عن هذا سوى أن أهلل لخداع الغفران والسماحة وأن أحافظ عليهما ؟ وأنى بهذه أحسب الزمن الذى تقتضيه كل روح فى المطهر ، وأخصص لها بقاء أطول أو أقصر حسبما يشترون عدداً أكبر أو أقل من صكوك الغفران التافهة والإعفاءات المعروضة للبيع ؟ أو ماذا يقال من سوء عن آخرين يزعمون أنهم سيحصلون على الثراء والمناصب الرفيعة واللذة والحياة العريضة ويبلغون أرذل العمر بل وينالون بعد وفاتهم مقعداً على يمين المسيح وذلك بقوة هذه التعاويذ السحرية أو بالعبث بحبات سبحاتهم وهم يتمتمون ببعض الدعوات والابتهالات (التى اخترعها بعض مدعى الدين إما للهو أو للاستفادة منها على الأرجح) ؟ :

ويستمر الهجو على حساب النساك والرهبان وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات . فالنساك يضجرون الناس بالسؤال ويعتقدون أنه يمكن الاستيلاء على السماء بالمثابرة على ترتيل المزامير المنومة ورجال الاكليروس العلماء يتحرقون شوقاً إلى المال . « إنهم ماهرون فى فن الاقتناء . . . ضريبة العشور والقرابين وأجور العائد . . . الخ » . وكل رجال الاكليروس على اختلاف طوائفهم ورتبهم يتفقون فى الرأى على إعدام الساحرات أما البابوات فليس بينهم وبين الرسل أى تشابه فى « ثرواتهم ومناصبهم وسلطاتهم القضائية ووظائفهم وإعفاءاتهم وتراخيصهم وامتيازاتهم . . . والحفلات وضرائب العشور وصكوك الحرمان من الكنيسية وأوامر التحريم » ورغبتهم العارمة فى المواريث ودبلوماسيتهم العالمية وحروبهم الدموية فكيف يمكن أن يكتب البقاء لكنيسة إذا خلت من الطيش وبساطة الإنسانية الساذجة ؟

وقد أثار كتاب « الثناء على الطيش » غضب علماء اللاهوت وكتب مارتن دريسيوس إلى أرازموس « لا بد أن تعرف أن كتابك » « طيش Maria » قد أثار إزعاجا كبيراً حتى بين من كانوا قبلا من أشد المعجبين بك المخلصين لك . ولكن الهجو فى هذا الدمار المرح كان خفيفا إذا قيس بما اتسمت به سورته التالية . وكان ثالث وآخر عام قضاه فى التدريس بجامعة كامبردج (١٥١٣) هو العام الذى توفى فيه البابا يوليوس الثانى وظهر فى باريس عام ١٥١٤ تعريض ساخر أوحوار يسمى Julius exclusus وقد بذل أرازموس جهداً صادقا ، لا يصل إلى حد الإنكار الصريح ، ليخفى أنه المؤلف له ، ولكن المخطوط تداولته أيدى أصدقائه وأدرجه مور دون تحفظ بين أعمال أرازموس . ولعله يمثل لنا نموذجا متطرفا لأرازموس الهجاء ، أن البابا المحارب بعد وفاته يجد أبواب السماء مغلقة فى وجهه ويمنعه من دخولها القديس بطرس العنيد :

يوليوس : كفى . أنا يوليوس الليجورى . و . أ

بطرس : و . أ ماذا تعنى ؟ وباء أعظم ؟

يوليوس : بل ولى أعظم أيها الخبيث .

بطرس : حتى لو كنت أعظم من ذلك ثلاثة أضعاف . . . فلن تدخل هنا إلا إذا كنت أيضا أفضل من ذلك أضعافا مضاعفة .

يوليوس : ياللوقاحة ! إنك لم تزد عن قديس طوال هذه العصور أما أنا فقديس و سيد وقداسة ، بل إنى القداسة ذاتها ، ومعى مستندات تثبت هذا .

بطرس : أليس هناك فرق بين أن تكون مقدسا وبين أن تدعى مقدسا ؟ دعنى أنظر إليك عن قرب . آه ! أرى سمات زندقة شديدة . . . مسوح قسيس ولكن تحتها سلاح يقطر دما

وعينان وحشيتان وفم متعجرف وجبين وقح وجسد وصمته كله الآثام : وأنفاس تفوح منها رائحة الخمر وبدن أسقمه التبذل والفسوق . نعم . هدد كما تشاء . . سأقول لك من أنت . . . أنت يوليوس الإمبراطور الذى عاد من الجحيم ؟ ؟ ؟

يوليوس : اسكت وإلا أصدرت قرارا بحرمانك . . . .

بطرس : تحرمني أنا ؟ بأى حق ؟ أود أن أعرف :

يوليوس : خير الحقوق فأنت لست إلا قسا ولعلك لست كذلك ؟ ؟ فأنت لا تستطيع أن ترسم كاهنا . افتح . آمرك أن تفتح .

بطرس : يجب أن تثبت أولا جدارتك . . .

يوليوس : ماذا تعنى بالجدارة ؟ .

بطرس : هل علمت العقيدة الحقة ؟

يوليوس : لا لم أعلمها أنا . فقد كنت مشغولا بالقتال . وثمة رهبان يعنون بالعقيدة إذا كان لهذا الأمر أية أهمية .

بطرس : هل كسبت أرواحا للمسيح بالقدوة الحسنة ؟

يوليوس : لقد أرسلت كثيراً منها إلى الجحيم .

بطرس : هل قمت بأى معجزات ؟

يوليوس : أف ! إن المعجزات أكل عليها الدهر وشرب..

بطرس : هل كنت مواظبا على صلواتك ؟

يوليوس : إن يوليوس الذى لا يقهر ليس ملزما بالإجابة على صياد مسكين . ومهما يكن من أمر فإنك ستعرف من أنا وماذا أعمل . أنا ليجورى أولا ولست يهوديا مثلك ، وكانت أمى شقيقة البابا العظيم سيكستوس الرابع وقد جعل منى البابا رجلا ثريا بفضل ممتلكات الكنيسة — وأصبحت كاردينالا . وقد

ألمت بي بعض المحن إذ أصبت بالجذرى الفرنسى وأقصيت عن بلدى وطردت منها ومع ذلك كنت أعرف طوال ذلك الوقت أنى سأكون البابا يوما ... وتحقق هـذا بمساعدة الفرنسيين من ناحية ، وبالأموال التى اقترضتها بفائدة من ناحية أخرى ، وبالوعود التى بذلتها من ناحية ثالثة . وما كان فى استطاعة كرويزوس أن يسلك كل النقود التى احتاج إليها هذا الأمر . وسوف يقول لك عن هذا المصرفيون . ولكنى نجحت وفعلت من أجل الكنيسة والمسيح أكثر مما فعـل أى بابا قبلى .

بطرس : ماذا فعلت ؟

يوليوس : رفعت الدخل . . ابتدعت وظائف جديدة وبعتها . . . وقمت بإعادة سك النقود وربحت مبلغا كبيراً من هذا الطريق . لا شى يمكن أن يتم بغير المال . ثم ألحقت بولونيا بالسلطة البابوية . . . وشددت آذان كل أمراء أوروبا . وخرقت المعاهدات واحتفظت بجيوش عظيمة فى الميدان . وغمرت روما بالقصور وتركت خمسة ملايين فى الخزانة بعد وفاتى . . .

بطرس : ولماذ أخذت بولونيا ؟

يوليوس : لأستولى على دخلها . . .

بطرس : وماذا جرى لفرارا ؟

يوليوس : كان الدوق تعسا منكراً للجميل ؛ فقد اتهمنى بالاتجار بالمقدسات والرتب والوظائف الدينية ووصفنى بأنى أتجر بالرتب الكهنوتية ... لقد أردت دوقية فرارا لأحد أبنائى الذين تستطيع الكنيسة أن تعتمد على إخلاصهم وكان قد طعن بالخنجر كاردينال بافيا .

بطرس : ماذا ؟ بأبوات لهم زوجات وأولاد ؟

يوليوس : زوجات ؟ لا ليس من الزوجات ، ولكن لماذا لا يكون لهم أولاد ؟

بطرس : وهل كانوا على حق فيما نسبوه إليك من جرائم ؟

يوليوس : هذا أمر لا علاقة له بالدعوى . . .

بطرس : أليست ثمة وسيلة لإزاحة بابا شرير ؟

يوليوس : سخف ! من يستطيع أن يزيح أعلى سلطة بين الناس ؟ إن البابا يمكن تقويمه بمجلس عام ولكن أى مجلس عام لا يمكن أن ينعقد إلا بموافقة البابا ومن ثم فإنه لا يمكن عزله مهما كانت الجريمة التى يرتكبها .

بطرس : حتى لو ارتكب جريمة قتل ؟

يوليوس : نعم . . . بل حتى لو قتل أحد والديه .

بطرس : ألا يعزل لو زنى ؟

يوليوس : نعم حتى لو زنى بالمحارم .

بطرس : ألا يعزل لو مارس الاتجار بالرتب الكهنونية ؟

يوليوس : نعم ولو اقترف ستمائة حادثة من حوادث الاتجار بالرتب الكهنوتية .

بطرس : ألا يعزل لو قتل أحدا بالسم ؟

يوليوس : نعم حتى لو انتهك المقدسات .

بطرس : ألا يعزل لو ارتكب كل هذه الجرائم مجتمعة ؟

يوليوس : حتى لو زدت عليها ٦٠٠ جريمة ، فليست ثمة قوة تستطيع أن تعزل البابا .

بطرس : يا له من امتياز عجيب يتمتع به خلفائى — أن يكونوا من أخبث الناس ومع ذلك ينجون من العقاب . ويا لها من كنيسة تعسة تلك التى لا تستطيع زحزحة مثل هذا الوحش عن كاهلها .. إن على الناس أن يثوروا ويرجموا بحجارة الرصف رأس مثل هذا الشقى . . . لو أن الشيطان فكر فى أن يصطفى قسا لما وجد خيرا منك . أى دليل قدمته على أنك رسول ؟

بوليوس : أليست زيادة موارد كنيسة المسيح عملا من أعمال الرسل ؟

طرس : ولكن كيف زدت موارد الكنيسة ؟

بوليوس : ملأت روما بالقصور . . . وبفرق من الخدم والجنود وآلاف الوظائف . . .

بطرس : إن الكنيسة لم تعرف شيئاً من هذا عند ما أنشأها المسيح . . .

يوليوس : إنك تفكر فى القصة القديمة عند ما أشرفت على الموت جوعا وأنت بابا وحولك حفنة من الأساقفة الفقراء المطاردين : لقد عفّى الزمن على كل هذا ... انظر الآن إلى كنائسنا الفخمة ... أساقفة مثل الملوك . . . وكرادلة تحيط بهم مظاهر العظمة . . خيول وبغال أعنتها من الذهب والجواهر وحدواتها من الذهب والفضة . أنا الحبر الأعظم فوق الجميع يحملنى الجنود على كرسى ذهبى فوق أعناقهم وألوح بيدى فى جلال للجماهير التى تعبدنى ، وأنصت إلى دوى المدافع وأنغام البوق ودقات الطبول وأرقب العربات الحربية والجماهير الصاخبة والمشاعل التى تضىء الطريق والميدان وأشهد ملوك الأرض وهم يحاولون تقبيل قدمى قداستى . . . أنظر إلى كل هذا وقل لى أليس

هذا رائعا ؟ لعلك تدرك أى أسقف تعس فقير كنت بالقياس إلى . . .

بطرس : يالك من شقى وقح ! لقد توسلت بالغش والربا والمكر للوصول إلى منصب البابوية . . . لقد حملت روما الكافرة على أن تؤمن بالمسيح أما أنت فقد عدت بها إلى الكفر . إن بولص لم يتحدث عن المدن التى اجتاحها ولا الفرق التى قتلها ... بل تحدث عن حطام السفن والقيود والاهانات والسياط . . . كانت هذه انتصاراته الرسولية وهذه كانت أمجاد قائد مسيحى . وعند ما كان يفخر بعمل فإنما يفخر بالأرواح التى استنقذها من براثن الشيطان وليس بما اكتنز من أكوام الدوكات . . .

يوليوس : هذه كلها أخبار أسمعها لأول مرة .

بطرس : ربما فقد كنت مشغولا بمعاهداتك وبروتوكولاتك ، وجيوشك وانتصاراتك ، فلم يتسع لك الوقت لقراءة الأناجيل . . . أنت تدعى أنك مسيحى مع أنك لست أفضل من أى تركى فأنت تفكر كالتركى ولا تقل عنه فجورا[1] . وإذا كان ثمة فرق بينكما فهو انك أسوأ .

يوليوس : إذن فلن تفتح الأبواب ؟

بطرس : سأفتحها لأى شخص آخر سواك أما أنت فلا . . .

يوليوس : إذا لم تخضع فسوف أستولى عنوة على مكانك . . . إنهم يقومون الآن بتدمير شامل تحتنا وقريبا سيكون لدى ٦٠،٠٠٠ شبح يقفون ورائى .

---

(١) لعل المؤلف يقصد الترك العثمانيين . (المترجم)

بطرس : أيها الرجل الشقى ! أيتها الكنيسة التعسة . . . لا عجب أن يقل عدد المتقدمين للدخول هنا ما دامت الكنيسة يحكمها أمثالك . ومع ذلك فلا بد أن فى العالم خيراً أيضا ما دام هذا الحضيض من الظلم يمكن أن يقبل من رجل لا لشىء إلا لأنه يحمل اسم البابا .

وهذا بالطبع رأى خاطئ من جانب واحد فما كان فى وسع محتال داعر مثل هذا أن يحرر إيطاليا من غزاتها وأن يستبدل بالقديس بطرس ، مايكل انجلو ورافائيل الجديدين ، المكتشفين ، الموجهين والمطورين ، وأن يوجد الحضارتين المسيحية والكلاسيكية فى مكان الفاتيكان وأن يقدم لمهارة رافائيل ذلك المظهر للفكر العميق والعناية الفائقة اللتين صورا فى صورة يوليوس الشخصية التى لا مثيل لها والموجودة فى قاعة أوفيزى . وفى الوقت الذى يدعو فيه أرزاموس المسكين كل القسس إلى تقشف الرسل نراه هو نفسه يلح فى طلب المال من أصدقائه ، ويكشف عن طبع العهد الثائر ، أن قسيسا يجد لزاما عليه أن يكتب اتهاما قاسيا لبابا . وفى سنة ١٥١٨ — السنة الثانية من عهد لوثر — كتب بيتر جليس إلى أرازموس من أنتورب : « ان كتاب Julius exclusus » « يوليوس المنفى » يباع هنا فى كل مكان . وكل إنسان يشتريه وكل واحد يتحدث عنه ، فلا عجب إذا ما لام المصلحون فيما بعد أرازموس لأنه قرع جرس الإنذار للتمرد ثم هرب بنفسه .

وفى سنة ١٥١٤ ظهر مؤلف آخر بقلم أرازموس أزعج العالم المستنير فى أوروبا الغربية وكان قد ألف ابتداء من عام ١٤٩٧ محاورات شكلية احترافا لتعليم الأسلوب اللاتينى والحديث ، وإن كان قد ناقش عرضاً ضروباً شتى من الموضوعات الشائقة الكفيلة بإيقاظ الطلبة من تعاسهم

اليومى . ونشر صديقه بياتوس رينانوس ، بإذن منه ، سلسلة من هذه المحاورات باسم « العبارات الخاصة بالحديث العادى » Familiarium colloquiorum وهى أشكال من الأحاديث المألوفة بقلم أرازموس الروتردامى ، لا تفيد فى صقل كلام صبى فحسب ، بل تكون أيضاً شخصيته . وأضيفت إلى الطبعات التالية محاورات أخرى فأصبحت أغنى مؤلف لأرازموس من حيث المادة « هى مزيج غريب — مناقشات حادة حول الزواج والأخلاق وحض على التقوى وعرض للأمور المنافية العقل والمساوئ فى سلوك الإنسان ومعتقده وتتخللها فكاهات لاذعة أو خطرة وكلها بلغة لاتينية اصطلاحية شائقة ولا بد أنها أصعب فى الكتاب من لغة الحديث الرسميـــة بين المتعلمين » ، وكتب مترجم انجليزى عام ١٧٢٤ يقول : « ليس ثمة أصلح للقراءة من كتاب « يكاد يهدم تماماً كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب شائق تعليمى » ، وفى هذا مبالغة ولكن ليس من شك فى أن أرازموس استخدم بطريقته المرحة « كتابه فى الأسلوب اللاتينى » فى مهاجمة نقائص رجال الأكليروس . وأدان الاتجار بمخلفات القديسين ، وإساءة استخدام أوامر الحرمان من الكنيسة ، واقتناء البطاركة والقسس للأموال ، والمعجزات الزائفة التى يخدع بها البسطاء ، وعبادة القديسين لأغراض دنيوية ، والمبالغة فى الصيام والتناقضات المروعة بين مسيحية الكنيسة ومسيحية المسيح وحمل بتغيا على أن تثنى على الرهبان باعتبارهم من عملائها المخلصين . وحذر سيدة شابة تريد الاحتفاظ ببكارتها فطلب منها أن تتحاشى « هؤلاء الرهبان المفتولى العضلات ذوى الكروش البارزة . . . فالعفة عرضة للخطر فى الدير أكثر من تعرضها له خارجه » ورثى لتعظيم شأن البكارة وهلل للنكاح باعتباره أسمى من العزوبة ، وأسف لأن الناس تحرص على معاشرة الجياد الصافنات للأفراس الأصيلة بينما يزفون فى الزيجات القائمة على المصلحة المالية عذارى سليمات إلى رجال هدهم المرض ، واقترح منع الزواج من المرضى بالزهرى أو من

الأشخاص المصابين بعجز شديد أو مرض خطير . . . وتمتزج بهذه التأملات الرصينة فقرات من الفكاهة الفظة . وكان الأولاد يطالبون بتشميت الناس عندما يعطسون ولا يطالبون بهذا عندما يضرطون . وكانت أية امرأة حامل يدعو لها الناس بدعاء وحيد: « ألا فلتهب السماء هذا الحمل الذى فى بطنك... سهولة الخروج كما وهبته سهولة الدخول » . وكان الختان أمرا ممتدحا « لأنه يخفف من حكة الجماع » . وثار حوار طويل بين « الشاب والبغى » انتهى بالتأكيد بإصلاح السيدة .

وشكا النقاد من أن هذه المحاورات كانت طريقة تنطوى على التهور لتعليم الأسلوب اللاتينى ، وزعم أحدهم أن كل الشباب فى فرايورج أفسدتهم هذه المحاورات واعتبر شارل الخامس استخدامها فى المدرسة جريمة يعاقب عليها بالإعدام . واتفق هنا لوثر فى الرأى مع الامبراطور : « سوف أحرم على أولادى قراءة محاورات أرازموس حتى لو كنت على فراش الموت » . وأكد نجاح الكتاب ما أثاره من حنق وبيع منه ٢٤٫٠٠٠ نسخة بعد نشره وحتى عام ١٥٥٠ لم يفقه فى التوزيع إلا الكتاب المقدس . وفى الوقت نفسه كاد أرازموس أن يجعل الكتاب المقدس ملكا خاصا له .

٤ — الغسلامة

وغادر إنجلترا فى يوليو سنة ١٥١٤ وشق طريقه خلال الضباب والعادات إلى كاليه وهناك تلقى من رئيس ديره الذى نسيه فى ستين ، خطابا يشير فيه إلى أن أجازته انتهت منذ مدة طويلة وأنه يحسن به أن يعود ليقضى ما بقى من عمره تائبا مستغفرا فانزعج لأن رئيس الدير يستطيع ، طبقاً للقانون الكنسى ، أن يدعو السلطة الزمنية إلى الزج به مرة أخرى فى السجن . والتمس ارازموس لنفسه عذراً ولم يتعجل رئيس الدير الأمر ولكن ، لكى

يتحاشى العلامة تكرار الحيرة ، طلب من أصدقائه الإنجليز ذوى النفوذ أن يكفلوا له من ليو العاشر إعفاءه من التزاماته كراهب .

وبينما كانت تجرى هذه المفاوضات اتخذ ارازموس طريقه أعلا الراين إلى بازيل وعرض على الناشر فروبن مخطوط أهم مؤلف له ، وهو مراجعة نقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير .

كان عملا أملاه الحب والاعتزاز بالنفس يتعرض مؤلفه وناشره للخطر على السواء : فقد استغرق الإعداد سنوات وسوف يكون الطبع والنشر من الأعمال الشاقة الكثيرة النفقات . والزعم بتفوق الترجمة ، على نسخة جيروم اللاتينية ، التى ظلت مقدسة مدة طويلة باعتبارها نسخة لاتينية للكتاب المقدس ، قد تدينه الكنيسة ، ومن المحتمل ألا تغطى المبيعات النفقات . وخفف ارازموس المخاطرة بإهداء العمل إلى ليو العاشر . وأخيراً نشر فروبن فى فبراير سنة ١٥١٦ « الأداة الجديدة الكاملة التى حققها ونقحها بمنتهى الدقة ارازموس الروتردامى Instrumentum omme, diligenenter ab Erasmo Rat, recognitum et emendatum. وصدرت بعدها طبعة تغييرت فيها كلمة الأداة بالوصية Instrumentum to Testamentum وقدم ارازموس فى أعمدة متقابلة النص اليونانى كما راجعه بنفسه مع ترجمته اللاتينية ويبدو أن معرفته باللغة اليونانية كانت غير كاملة ومن ثم فهو يشترك مع جماعى الحروف فى المسئولية عن أخطاء كثيرة . ومن وجهة النظر العلمية كانت الطبعة الأولى من العهد الجديد باليونانية المعدة للنشر بعد الطبع أقل من مثيلتها التى أتمها وطبعها جماعة من العلماء لحساب الكاردينال اكسيمينيس عام ١٥١٤ وإن كانت لم تقدم للجمهور إلا عام ١٥٢٢ . وقد دل هذان العملان على تطبيق التعليم الإنسانى لأدب — المسيحية الأولى وعلى بداية هذا النقد الإنجيلى الذى استعاد الكتاب المقدس فى القرن التاسع عشر إلى مجال التأليف الإنسانى وما يتعرض له من زلل .

ونشرت مذكرات ارازموس فى مجلد منفصل وقد كتبت بلغة لاتينية اصطلاحية واضحة مفهومة لكل خريجى الكليات فى هذا العهد وكانت لها قاعدة عريضة من القراء وعلى الرغم من أنها كانت متفقة مع الإجماع فإنها سبقت كثيرا من التفسيرات التى ابتدعت فى البحث التالى . وقد حذف فى طبعته الأولى Comma Johanneum « الوصل اليوحنى » (إصحاح يوحنا ٥ : ٧) الذى أكد الثالوث ولكن الذى تلفظه اليوم النسخة المنقحة الصحيحة باعتباره مما دس فى القرن الرابع .

ونشرت قصة المرأة التى اتهمت بالزنى وإن كان قد أشار إلى أن من المحتمل أن تكون كاذبة (إصحاح يوحنا ٧ : ٥٣ و ٨ : ١١) كما نشر الاثنتى عشرة آية الأخيرة من إنجيل مرقس وأشار فى أكثر من موضع إلى الفرق بين المسيحية الأولى والحالية . وعلق على إصحاح متى ٢٣ : ٢٢٧ : « ترى ماذا يقول جيروم لو رأى لبن العذراء يعرض للبيع بالمال ، ويضفى عليه من التكريم ما يضفى على جسد المسيح المقدس ، والزيوت الإعجازية وأجزاء الصليب الحقيقى التى تكفى إذا جمعت لشحن سفينة كبيرة ؟ هنا قلنسوة سانت فرانسيس وهناك تنورة سيدتنا العذراء أو مشط سانت آن . . . لا تقدم كأشياء بريئة معاونة للدين ولكن كجوهر للدين نفسه وكلها تعبث ببساطة الناس من خلال شح القسس وهرطقة الرهبان »

ولوحظ أن إصحاح مت ١٢:١٩ ينص على « لقد خصى بعضهم نفسه من أجل مملكة السماء » وقيل هذا للنصح بالعزوبة فى الدير وكتب آرازموس « اننا ندرج بين هذه الطائفة هؤلاء الذين دفعوا إلى حياة العزوبة بالغش أو بالإرهاب حيث يسمح لهم بالزنى ويحظر عليهم الزواج وهكذا يعدون قسسا مسيحيين إذا احتفظوا علنا بخليلة ويحرقون إذا اتخذوا زوجة . وفى رأيى أن الآباء الذين يعتزمون نذر أولادهم للكهنوت الذى يقتضى العزوبة

يكونون أرق قلباً لو خصوهم فى طفولتهم بدلا من تعرضهم كلية لهذ الإغراء والخضوع للشهوة » .

وفى رسالة تيموثاوس ٣ : ٢ : هناك الآن أعداد ضخمة وحشود هائلة من القسس علمانيين ونظاميين . ومن الشائع أن قلة منهم تتمسك بالعفة وأن الجانب الأكبر منهم يسقطون فى حمأة الشهوة والزنى بالمحارم والفجور. وليس من شك فى أنه من الأفضل أن يسمح لهؤلاء الذين لايستطيعون التمسك بالعفة بزوجات شرعيات وبهذا ينجون من هذا الدنس البذىء التعس .

وأخيراً عزف ارازموس اللحن الأساسى للمصلحين فى تعليق عام على إصحاح متى ١١ : ٣٠ — ألا وهو العودة من الكنيسة إلى المسيح : « حقا إن قيد المسيح يكون لطيفاً وحمله خفيفا إذا لم تضف الشرائع الإنسانية التافهة شيئاً لما عرضه هو نفسه . إنه لم يأمرنا إلا بأن يحب بعضنا بعضا وليس ثمة ما يصعب على المودة أن تلطف من حدته وتخفف من مرارته . فكل شىء من السهل تحمله طبقا للطبعية ، ولا شىء يتفق مع طبيعة الإنسان أحسن من فلسفة المسيح التى لا هدف لها إلا إعادة البراءة والتكامل للطبيعة الهاوية . . . وقد أضافت الكنيسة لها أشياء كثيرة يمكن الاستغناء عن بعضها دون الإضرار بالإيمان . . . مثل كل تلك العقائد الفلسفية عن طبيعة الإنسان وتمييز الأشخاص . وما أكثر القواعـــد والأوهام التى تعرفها عن الثياب . . . وما أكثر أيام الصيام التى استنت . . . وماذا نقول عن العهود . . وعن سلطة البابا وإساءة استخدام صُكوك الغفران والتحلل ؟ .. هل يرضى الناس أن يدعوا المسيح يحكم بمقتضى شرائع الإنجيل وألا يبحثوا بعد ذلك عن دعم طغيانهم الجامح بقوانين من صنع البشر ؟ » .

ولعل التفسيرات هى التى أتاحت للكتاب نجاحاً لا بد أنه أذهل المؤلف والناشر على السواء . وقد وزعت الطبعة الأولى فى ثلاث سنوات ثم صدرت

للكتاب طبعات جديدة ومنقحة بلغت تسعة وستين قبل وفاة ارازموس . ووجه للعمل نقد عنيف وأشير إلى ما تضمنه من أخطاء كثيرة . ولقد دمغ الدكتور جوهان ايك ، الأستاذ بجامعة انجولشتادت وأول خصيم للوثر ، بالعار بيان ارازموس المتضمن أن اللغة اليونانية التى كتب بها العهد الجديد أقل شأنا من اللغة اليونانية التى كان يتكلم بها ديموستين . ومهما يكن من أمر فإن ليو العاشر وافق على العمل . وطلب البابا أدريان السادس من ارازموس أن يعمل للعهد القديم ما قام به نحو العهد الجديد ولكن مجلس ترنت أدان ترجمة ارازموس وأعان أن النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس لجيروم هى النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس . وسرعان ما عد العهد الجديد لارازموس عملا متخلفا من الناحية الدراسية العلمية وإن كان أثره عظيما باعتباره حدثا فى تاريخ الفكر ، فقد يسر ورحب بالترجمات الوطنية التى ظهرت فى أعقابه . وتقول فقرة متحمسة فى المقدمة : « بودى لو قرأت أضعف امرأة الأناجيل ورسائل القديس بولص . . بودى لو ترجمت هذه الكلمات إلى جميع اللغات لا ليقرأها الاسكتلنديون والايرلنديون فحسب بل ليقرأها أيضاً الأتراك والمشارقة .

وإنى لأود أن ينشدها الحارث لنفسه وهو يسير وراء المحراث ويترنم بها النساج على أنغام الماكوك ويهون بها المسافر من مشقة رحلته . . . . قد نأسف على دراسات أخرى أخذناها على عاتقنا ولكن ما أسعد المرء الذى يفاجئه الموت وهو مشغول بها .

إن هذه الكلمات المقدسة تعطيك نفس صورة المسيح وهو يتكلم ويبرئ المرضى ، وهو يموت ثم يرفع مرة أخرى ، وتجعله حاضراً بحيث لو مثل أمام عينيك لما رأيته حقا أوضح من هذا » .

واغتبط ارازموس لكفاية مطبعة فروبن والعاملين بها فأصدر (فى نوفمبر سنة ١٥١٦) طبعة نقد فيها ترجمة جيروم وأعقبها بنصوص مماثلة

منقحة وكلاسية لآباء الكنيسة وصحح ٤٫٠٠٠ خطأ فى النص الذى تلقاه من سينيكا وكانت هذه خدمات جوهرية للدارسين .

وروى ثانية قصة العهد الجديد بتفسيرات (١٥١٧) وتطلبت هذه المهام الإقامة أكثر من مرة فى بازيل وان حدد ارتباط جديد إقامته قرب البلاط الملكى فى بروكسل . وكان شارل آنذاك ملكا على قشتالة وحاكما للأراضى المنخفضة ولم يكن عندئذ قد أصبح الإمبراطور شارل الخامس ، وكان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ومع ذلك فإن عقله المرهف كان يهيم حول اهتمامات مختلفة ، واقتنع فعلا بأن بلاطه يمكن أن يزداد تألقاً إذا كان بين مستشاريه العالمين ببواطن الأمور الكاتب البارز فى عصره . وأصدر أمراً بهذا وقبل ارازموس — لدى عودته من بازيل (١٥١٦) — المنصب الفخرى بمرتب متواضع . وعرض عليه منصب دينى فى كورتراى مع وعد بأسقفية فرفضه وكتب لأحد أصدقائه يقول : « هاك حلم يسليك » . وتلقى وأعرض عن دعوات بالتدريس فى جامعات ليبزج وأنجولشتادت .

وحاول فرانسس الأول أن يفرق بينه وبين شارل بطلب ينطوى على التملق وهو أن ينضم إلى بلاط فرنسا فرفض أرازموس العرض بلطف ورقة .

وفى الوقت نفسه كان ليو العاشر قد أرسل إلى لندن التحللات المطلوبة . وفى مارس من عام ١٥١٧ سافر أرازموس الى لندن وتسلم رسائل البابا التى تحله من التزاماته نحو الدير ومن وصمة اللقاطة . وأضاف ليو إلى الوثائق الرسمية مذكرة شخصية : « ابنى الحبيب : تمنياتنا لك بالصحة مع بركاتنا الرسولية . ان ما من الله به عليك من حياة طيبة وخلق قويم ، ولوذعيتك البارعة وأفضالك الرفيعة لا تشهد عليها آثار دراساتك التى اشتهرت فى كل مكان فحسب بل يشهد عليها أيضا اجماع آراء معظم المتعلمين . وقد أنت عليك رسائل أميرين ذائعى الصيت هما ملك انجلترا ، وملك فرنسا الكاثوليكى وهذه هيأت لنا سبباً لكى نخصك بمنة فريدة وفضل خاص .

ومن ثم أجبنا التماسك ونحن راضون ومستعدون لكى نعلن محبتنا الشديدة لك عندما تهيئ الفرصة إما بنفسك أو عندما تسنح بطريق الصدفة . ونظن بحق أن جهدك المقدس الذى يبذل باستمرار للصالح العام سوف يلقى تشجيعاً وقدراً عظيماً من الاهتمام بمكافآت مناسبة » .

ولعلها كانت رشوة حكيمة لسلوك حسن ، ولعلها كانت لفتة صادقة من بلاط متسامح إنسانى ، وفى أية حالة فإن ارازموس لم ينس قط هذه المجاملة البابوية وسوف يجد دائماً من الصعب أن يتحلل من كنيسة تحملت فى صبر لذع نقده .

٥ ـ الفيلسوف

وعند عودته إلى بروكسل وجد نفسه فريسة الإغراء بالتمسك بالحرص نظراً لما استقبل به من ترحاب ودى فى البلاط الملكى . وأخذ منصبه كمستشار خاص بجد ، ونسى أن المؤلفين اللامعين قلما تتوفر فيهم صفة الحنكة السياسية . وألف فى عجلة عام ١٥١٦ الحافل بالأعمال كتابه : « تربية أمير مسيحى » الذى يفيض بالتفاهات التى كانت سائدة قبل ظهور كتاب ماكيافلى عن السلوك الذى يجب أن يتبعه ملك . وكتب فى إهدائه لشارل بصراحة تتسم بالجرأة : « إنك تدين للعناية الإلهية فى الفوز بمملكتك دون الإضرار بأحد ولسوف تظهر حكمتك على الوجه الأكمل إذا استطعت أن تحافظ فيها على السلام والهدوء » . وكان ارازموس ، مثل معظم الفلاسفة : يعد الملكية أهون الأشكال الحكومية شراً ، وكان يخشى الشعب ويعده « وحشاً متقلباً متعدد الرؤوس » . وكان يستنكر مناقشة الشعب للقوانين والسياسة ويرى أن فوضى الثورة أسوأ من أى استبداد للملوك ، بيد أنه أشار على أميره المسيحى أن يتقى شر تركيز الثروة ، فالضرائب لا تفرض إلا على الكماليات ، ويجب تقليل الأديرة وزيادة المدارس ، وعلاوة على كل هذا يجب ألا ينشب قتال

بين الحكومات المسيحية — ولا حتى ضد الأتراك . « خير لنا أن نتغلب على الأتراك بالتقوى فى حياتنا لا بالأسلحة . وهكذا يتم الدفاع عن الإمبراطورية المسيحية بنفس الوسائل التى أسست بها أصلا » . « ماذا تولد الحرب إلا الحرب ؟ — ولكن الدماثة تدعو إلى الدماثة والعدالة تدعو إلى العدالة » .

ولما كان شارل وفرانسس قد ثارت بينهما العداوة فإن إرازموس وجه الدعوة تلو الدعوة للسلام وامتدح الملك الفرنسى فى حا[illegible]ة من المصالحة وتساءل كيف يمكن أن يفكر أحد فى شهر الحرب على فرنسا « أطهر جزء فى العالم المسيحى وأعظمه ازدهاراً » . ووصل إلى ذروة الفصاحة المتحمسة فى كتابه (الشكوى من السلام ١٥١٧) :

« أمر فى صمت على مآسى الحروب القديمة ولن أركز الحديث إلا على الحروب التى نشبت فى خلال هذه السنوات الأخيرة . أين الأرض أو البحر الذى لم يحارب فيه الناس بطريقة من أقسى ما يمكن ؟ وأين النهر الذى لم تصطبغ مياهه بدم الإنسان . . . بالدم المسيحى ؟ يا للعار العظيم إنهم يتصرفون بقسوة فى المعركة تزيد على قسوة غير المسيحيين ، وبوحشية تفوق وحشية حيوانات الغاب . . وكل (هذه الحروب) نشبت بسبب نزوات الأمراء على حساب الإضرار بالناس الذين لا ناقة لهم ولا جمل فى هذه المعارك . . . وليس بين الأساقفة والكرادلة والبابوات ، وهم كهنة المسيح ، من يخجل من بدء الحرب التى لعنها المسيح . ما هو الشىء المشترك بين الخوذة وتاج الأسقف ؟ ويا أيها الأساقفة ، يامن يحملون لواء الرسل ، كيف تجرؤون على أن تعلموا الناس أموراً كثيرة عن الحرب فى نفس الوقت الذى تعلمونهم فيه تعاليم الرسل ؟ إن السلام ولو كان جائراً أفضل من الحروب ولو كانت تمليها العدالة » .

قد يفيد الأمراء والقواد من الحرب ولكن الجماهير تتحمل المآسى والنفقات . وقد يكون من الضرورى أحياناً شن حرب دفاعاً عن النفس

obeikandi.com

ولكن حتى فى هذه الحالات قد تكون رشوة العدو أشد حكمة من شرور الحرب . فليرفع الملوك منازعاتهم إلى البابا . وقد يكون هذا إجراء غير علمى فى عهد يوليوس الثانى إذ كان هو نفسه رجلا محارباً ، أما ليو العاشر وهو « حبر متعلم تقى أمين » فإنه سيحكم بالعدل ويرأس فعلا محكمة دولية : ووصم ارازموس القومية بأنها لعنة للبشرية وتحدى الساسة أن يتدعوا حكومة عالمية . وقال : « إنى أتمنى أن أكون مواطناً عالمياً » واغتفر لبوديى حبه لفرنسا ولكنه قال : « فى رأيى أنه أقرب للحكمة أن تكون علاقاتنا مع الأشياء والناس أساساً مثل اعتبار العالم البلد المشترك بالنسبة لنا جميعاً » .

كان ارازموس أضعف الناس حماساً للقومية فى عهد الإصلاح الذى رفع من شأن القومية . وكتب يقول : « إن أسمى شىء هو أن يستحق المرء أن ينسب إلى الجنس البشرى » .

ويجب ألا نتوقع من إرازموس أن يقدم لنا أى مفهوم واقعى للطبيعة البشرية أو عن أسباب الحروب أو عن سلوك الحكومات فهو لم يواجه قط المشكلة التى كان يعالجها فى مكيافيلى فى تلك السنوات نفسها . وهل كان فى وسع حكومة أن تبقى إذا مارست الأخلاق التى تحث المواطنين على اتباعها . كانت وظيفة ارازموس أن يبتر الأغصان من شجرة الحياة لا أن يبنى فلسفة إيجابية متينة . بل إنه لم يكن واثقاً من أنه مسيحى ، فكثيراً ما أكد أنه يقبل عقيدة الرسل ، ومع ذلك فلابد أنه شك فى الجحيم لأنه كتب : « إن الذين ينكرون وجود الله ليسوا ملحدين كهؤلاء الذين يصورونه تعالى متزمتاً » . وكان لا يكاد يؤمن بأن العهد القديم من كلام الله لأنه أقر برغبته فى « أن يرى العهد القديم كله يبطل » إذا كان يهدئ من الحنق على رويخلين . وسخر من الروايات المأثورة عن مينوس وتوما بأنهما كانا يغريان شعبهما بالخضوع لتشريع غير لطيف بنسبته إلى الآلهة . ولعله راوده الشك فى أن موسى كان يتبع نفس السياسة . وعبر عن دهشته لأن

« مور » رضى بالحجج التى تساق لإثبات خلود النفس ورأى أن العشاء الربانى رمز وليس معجزة ، ومن الواضح أنه راوده الشك فى الثالوث وفى تجسد الأقنوم الثانى وفى ولادة العذراء ، وكان على مور أن يحميه من مراسل أعلن أن ارازموس قد اعترف فى خلوة بعدم إيمانه . وطرح للنقاش واحداً بعد الآخر العادات التى درج عليها المسيحيون فى عهده — صكوك الغفران والصيام والحج والاعتراف السرى والرهبانية والعزوبة الاكليريكية وعبادة مخلفات القديسين والصلوات للقديسين وحرق الهراطقة . وقدم تفسيرات مجازية أو منطقية لكثير من فقرات الكتاب ، المقدس، وقارن قصة آدم وحواء بقصة بروميثيوس ، وأشار بتفسير الكتب المقدسة تفسيراً يلتزم أقل ما يمكن المعنى الحرفى ، وحول عذاب الجحيم إلى الألم الدائم للعقل الذى يصحب الإثم المعتاد . ولم يذع شكوكه بين الناس لأنه لم يكن لديه أساطير مواسية أو رادعة يقدمها بدلا من الأساطير القديمة . وكتب يقول : « إن التقوى تستلزم منا أن نخفى الحقيقة أحيانا وأن نحرص على ألا نظهرها دائماً كما لو كان لا يهم متى وأين أو لمن نظهرها ، ولعلنا نجد لزاماً علينا أن نتفق مع أفلاطون فى أن الأكاذيب مفيدة للناس » .

وعلى الرغم من هذا الميل الشديد للمذهب العقلى فقد ظل ارازموس ظاهريا متفقاً مع المحافظين ولم يعدم قط محبته للمسيح وللأناجيل وللطقوس الدينية الرمزية التى رفعت بها الكنيسة من شأن التقوى . وابتدع شخصية فى محاوراته تقول « إذا كان ثمة شىء شائع الاستعمال عند المسيحيين لا يتنافر مع الكتب المقدسة فإنى أراعيه لهذا السبب بحيث لا أسىء إلى الناس الآخرين » .

وكان يحلم بأن يستبدل باللاهوت : فلسفة المسيح ، وسعى إلى التنسيق بين هذه الفكرة وبين رأى كبار الوثنيين . ووصف أفلاطون وسيشرون وسينكا بعبارة « ملهم من الله » ولم يقبل آن يحرم هؤلاء الرجال من الخلاص

وكان لا يكاد يستطيع أن يمتنع عن الصلاة على روح القديس سقراط . وطلب من الكنيسة أن تختصر المذاهب الجوهرية للمسيحية « إلى أقل عدد ممكن وأن تترك للباقى حرية الرأى » . ولم يدافع عن التسامح الكامل مع كل الآراء (ومن يفعل ؟) ولكنه اتخذ موقفاً رفيقاً منحازاً نحو الهرطقة الدينية . وكان مثله الأعلى فى الدين هو محاكاة المسيح ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نسلم بأن ممارسته للشعائر كانت أقل من أن توصف بأنها مطابقة لتعاليم الكنيسة الإنجيلية .

٦ — الإنسان

كيف عاش فعلا ؟ لقد أقام إبان هذا العهد (١٥١٧) معظم وقته فى الفلاندرز فى بروكسل وأنتورب ولوفان — وسكن فى خلوة أعزب مع خادم وإن كان كثيراً ما قبل ضيافة ذوى الثراء الذين كانوا يتسابقون على صحبته باعتبارها امتيازا اجتماعيا واحتفالا فكريا .

وكان أنيقا فى أذواقه وكانت أعصابه ومشاعره رقيقة إلى الحد الذى كان كثيراً ما يتألم فيه من خشونات الحياة الشديدة . وكان يشرب النبيذ بكثرة ويتفاخر بقدرته على حمل الكأس بثبات ، ولعل هذا كان بسبب داء النقرس والحصوات التى كانت تضايقه ، ولكنه كان يعتقد أن النبيذ يخفف من ألمه بتوسيع شرايينه .

وفى عام ١٥١٤ وهو فى الخامسة والأربعين أو الثامنة والأربعين من عمره وصف نفسه قائلا إنه : « عليل أشيب الرأس . . . يجب ألا يشرب سوى النبيذ » ويجب أن « يكون متأنقا فى طعامه » . وكان الصيام لا يناسبه ، وكان يتميز غيظا من السمك ؛ ولعل الصفراء عنده لونت لاهوته . وكان قليل النوم مثل معظم الناس الذين لا تعرف عقولهم المشغولة متى يأوون إلى الفراش ، وكان يواسى نفسه بأصدقائه وكتبه « يخيل إلى أنى أنتزع من نفسى

عند ما أحجز عن عاداتى اليومية فى الدراسة . إن بيتى هو المكان الذى توجد فيه مكتبتى » .

وكان يلح فى طلب النقود بكل ما عرف من مثابرة عن قسيس أبرشية ، وذلك لشراء الكتب إلى حد ما . وكان يتلقى معاشات منتظمة من مونتجوى ووارهام وهدايا عينية مثل مبلغ الثلاثمائة فلورين (٧٥٠٠ دولار ؟) من جان ليه سوفاج رئيس وزراء بورجنديا ، وحقوق تأليف تزيد عن تلك التى كسبها أى مؤلف آخر فى عصره .

وكان يتنصل من أى حب للمال ويقول إنه يبحث عنه لأنه ، كأى رجل بلا موارد ، يخشى ألا يجد ما يؤمنه فى وحدته عند ما يبلغ أرذل العمر . وفى الوقت نفسه استمر يرفض الوظائف المربحة التى كان يمكن أن توسع دخله على حساب حريته .

كان مظهره أولا لا يؤثر فى الناس ؛ فقد كان قصير القامة نحيل البدن أصفر الوجه ضعيف البنية ، خافت الصوت ، وكان يؤثر فى الناس بيديه الحساستين وأنفه الأقنى وعينيه الزرقاوين الرماديتين اللتين تلمعان ببريق الذكاء ، وكلامه حديث يدل على عقلية خصبة لماحة من أحسن العقليات فى هـــذا العصر اللامع ، وكان أعظم الفنانين من معاصريه أبناء الشمال يتوقون إلى رسم صورة له ، فوافق على أن يجلس أمامهم لأن هذه الصور كانت تلقى ترحيبا من أصدقائه باعتبارها هدايا ، وصوره كينتان ماسيس عام ١٥١٧ وهو مستغرق فى الكتابة وملتف بمعطف ثقيل يقيه برد الحجرات فى تلك القرون ، وأهديت هذه الصورة إلى مور . ورسم ديرر صورة بالفحم لارازموس عام ١٥٢٠ ، ونقش له حفرا ملفتا للنظر عام ١٥٢٦ ، وهنا أضفت لمسة الريشة الألمانية تماما على « الأوروبى الطيب » سحنة هولندية . وقال الجالس « إذا كنت أبدو كهذه الصورة فأنا محتال كبير » . وتفوق هولبين على

كل هذه الجهود فى صور كثيرة رسمها لارازموس إحداها فى تورين وثانية فى انجلترا وثالثة فى بازيل وأحسنها فى اللوفر — وكلها روائع رسمها أعظم مصور للوجوه فى الشمال ، وهنا كان العلامة قد أصبح فيلسوفا هادئا متأملا وإن كان سوداويا إلى حد ما ، وسلم فى نفور لحياد الطبيعة المتواكل وفناء العبقرية . وكتب عام ١٥١٧ يقول : « يجب أن نتحمل ما يأتى به حظنا وقد هيأت عقلى لتقبل كل حدث » . وهى فلسفة رواقية لم يحققها قط . . . وقال عن شاب طموح : « إنه يحب المجد ولكنه لا يعرف ما يكلفه المجد من عناء » . ومع ذلك فإن ارازموس مثل كثير من ذوى النفوس النبيلة ، كان يواصل العمل ليلا ونهارا ليتغلب على هذا العبء .

وبدت أخطاؤه واضحة للعيان ، أما فضائله فكان لا يعلمها إلا الخلصاء من أصدقائه ، وكان فى وسعه أن يتسول بلا خجل ، ولكن كان فى وسعه أيضا أن يعطى ، وكثيراً ما كانت تشيع فى حرارة مدحه روح متمردة . وعند ما وجه بفيفركورن Pfefferkorn هجومه إلى رويحلين كتب ارازموس إلى أصدقائه من الكرادلة فى روما ، وساعد على الحصول على الحماية للعالم بآداب اللغة العبرية المتعب ، وكان يفتقر إلى التواضع والاعتراف بالجميل ، فقد كان هذا من الصعب على رجل يخطب وده البابوات والملوك .

وكان يضيق ذرعا بالنقد ويستاء منه ، وكان أحيانا يجيب عليه بطريقة نعسنية فى هذا العصر الشهير بالجدل ، وشاطر فى مناهضة السامية حتى مع علماء عصر النهضة ، وكانت اهتماماته فى أضيق الحدود كما كانت قوية ، فقد أولع بالأدب عند ما كان يلبس ثوب الفلسفة ، وبالفلسفة عند ما كانت تترك المنطق للحياة ؛ ولكنه تجاهل تقريبا العلم والمسرح والموسيقى والفن . وسخر من معظم نظم الفلك التى كانت تختال على المسرح وسخرت معه النجوم . وليس فى كل مراسلاته العديدة تقدير للألب أو لعمارة أكسفورد

وكامبردج أو لتصوير رافائيل أو لنحت ما يكلانجلو الذين كانوا يعملون ليوليوس الثانى عند ما كان ارازموس بروما (١٥٠٩) ، ثم إن الترتيل القوى فى الأبرشيات المقومة آذى فيما بعد أسماعه المهذبة . وكانت حاسة الفكاهة عنده عادة تتسم بالدقة والرقة ، وكانت رابيلية ولكنها فى الغالب ساخرة ، وانقلبت مرة إلى سخرية لا تتسم بالإنسانية كما حدث عند ما كتب إلى صديق عند ما سمع بإجرام بعض المراطقة : « سأرثى لهم أقل إذا رفعوا ثمن الوقود لا سيما وأن الشتاء على الأبواب » .

ولم تكن من صفاته الأثرة الطبيعية أو الأنانية التى يتسم بها كل الرجال ، بل كان يتصف بذلك الغرور الخفى المحبب أو الإعجاب بالذات الذى لولاه لانسحق الكاتب أو الفنان فى الاندفاع القاسى لعـالم يتسم بعدم الاكتراث .

وكان يحب الإطراء ويوافق عليه على الرغم ممن كانوا ينكرون عليه ذلك من آن لآخر. وقال لأحد أصدقائه : « إن خير النقاد يقولون إنى أكتب أحسن من أى إنسان آخر على ظهر الأرض » . وكان هذا حقا وإن كان باللاتينية فحسب ، فقد كان يكتب بفرنسية رديئة ويتحدث قليلا بالهولندية والإنجليزية ، وكان « يتذوق العبرية بطرف اللسان فقط » وكان يعرف اليونانية معرفة ناقصة ولكنه كان يجيد تماما اللغة اللاتينية ، وكان يستخدمها باعتبارها لغة حية يمكن تطبيقها على معظم التفاهات والأشياء الحقيرة غير اللاتينية فى عهده . وقد اغتفرت أجيال قرن مشغوفة بالكلاسيات معظم أخطائه نظرا لما يمتاز به أسلوبه من إشراقة زاهية . وما تتسم به تقديراته للأشياء ، بأقل من قيمتها ، من سحر عجيب ، وما تتصف به سخريته من تهكم لاذع . وتضارع رسائله خطابات سيشرون فى البلاغة والدماثة وتفوقها حيوية وفطنة . وفضلا عن هذا فقد تفرد بلغة لاتينية خاصة به ، ولم تكن تقليدا للغة شيشرون بل كانت كلاما حيا قويا طيعا ،

ولم تكن صدى لألفاظ مضى عليها ١٥٠٠ عام . وكانت رسائله مثل رسائل بتراك مطمح أنظار الأدباء والأمراء بعد حديثه المثير وهو يقول لنا ، ولعل هذا بشيء من الرخصة الأدبية ، أنه كان يتسلم كل يوم عشرين رسالة ويكتب أربعين خطابا . ونشرت منها بضع مجلدات فى حياته بعد أن فتحها مؤلفها بعناية حتى يقرأها من يأتون بعده . وكان بين من يراسلونه ليو العاشر وأدريان السادس والملكة مارجريت ملكة ناڤار والملك سيجموند الأول ملك بولنده وهنرى الثامن وموروكوليه وبيركايمار . وكتب مور المتواضع : « لا أستطيع أن أتخلص من شعور نزوى بالغرور . . عندما يخطر ببالى أنى سأكون موضع ثناء من خلف بعيد لصداقتى لارازموس » .

ولم يضارعه فى شهرته كاتب آخر من معاصريه ، اللهم إلا إذا اعتقدنا أن لوثر كاتب . وأبلغ بائع كتب فى اكسفورد عام ١٥٢٠ أن ثلث مبيعاته كانت من أعمال ارازموس . وكان له أعداء كثيرون وبخاصة بين علماء اللاهوت فى لوفان ، غير أنه كان له مريدون فى اثنتى عشرة جامعة ، وكان هناك علماء للإنسانيات فى أوروبا ينادون به قدوة وزعيما . وفى ميدان الأدب كان يمثل عصر النهضة ومذهب الإيمان بالإنسان مجتمعين — عبادتهما للكلاسيات ولأسلوب لاتينى مصقول واتفاق الجنتلمان (السادة المهذبين) على ألا يختلفا مع الكنيسة وألا يزعجا أساطير الجماهير التى لا غنى عنها ، على شريطة أن للكنيسة أن تغض النظر عن الحرية الفكرية لطوائف المتعلمين وتسمح بتقويم مفاسد وسخافات رجال الدين تقويما داخليا قانونيا ، وقد هلل ارازموس مثل كل علماء الإنسانيات لتبوؤ ليو العاشر منصب البابوية ، فقد تحقق حلمهم — وها هو عالم بالإنسانيات وعلامة وسيد مهذب ، يمثل اتحاد النهضة والمسيحية معا ، قد ارتقى أعظم العروش . وليس من شك فى أنه سوف يتم تطهير سلمى للكنيسة ، وينتشر التعليم ، وسيحافظ الناس

على شعيرتهم المحببة وإيمانهم الذى يجدون فيه العزاء وإن كان العقل البشرى سوف يكون حرا .

وظل هذا الأمل يراود ارازموس حتى بداية عهد لوثر تقريبا ، ولكنه فى اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥١٧ كتب من انتورب إلى توماس ، كردينال يورك ، عبارة تنذر بالويل : « فى هذا الجزء من العالم أخشى أن هناك ثورة عظيمة توشك على الوقوع » . وفى أقل من شهرين وقعت الثورة .